

تفسير الأحلام

للمعلمة سميرة فروير

سلسلة محاضرات ألقاها في نيبا

للاستاذ محمد جمال الدين حسن

بعض الفروض القهرية وطريقة التفسير:

كان العلماء إلى ما قبل ظهور علم التحليل النفسي يفسرون الحلم على أنه ظاهرة جسمية تنشأ عن اضطراب في المدة أو ما شابه ذلك من مؤثرات عضوية . أما نحن فنفرض أن الحلم ظاهرة عقلية لا جسمية . وقد لا يكون لهذا الفرض ما يبرره ، ولكن ليس هناك ما يمنعه أيضاً ، فالحلم إذا كان ظاهرة جسمية لا يهتنا في شيء ولكنه يكون ذا فائدة لنا إذا كانت ظاهرة عقلية . وعلى هذا فنسلم بصحة هذا الفرض وسنرى من النتائج التي سنصل إليها إن كنا على خطأ أم على صواب . والآن ما هو

الفرض من هذا البحث وإلى أي غاية نوجه هذه الجهود ؟ إن غرضنا هو الفرض من كل بحث علمي ، أي الوصول إلى دراسة واضحة للظواهر الطبيعية وتكوين علاقة بينها وإخضاعها لسلطاننا على قدر الامكان .

وهي هذا فنواصل بحثنا على فرض أن الأحلام ظاهرة عقلية ، ومعنى هذا أنها خيالات رآها الحالم أو كلمات تفوهبها أثناء النوم ولكنها لا تدلنا على شيء ولا نستطيع أن نفهم لها معنى . لنفرض أي تفوهت أمامكم بكلام غير مفهوم فماذا أنتم صانعون ؟ ألا تسألوني الأيضاح عما أريد ؟ أظن هذا هو الحل المقبول . فلم إذا لا تتبع نفس الطريقة فنسأل الحالم عن معنى حلمه ؟ تذكرون أننا سبق أن وجدنا أنفسنا في مثل هذا الوضع (١) عندما كنا نبحت في زلات اللسان ، وقد بينت لكم أنه يجب

(١) يشير فرويد إلى المحاصرات التي ألقاها عن «سيكولوجية الأخطاء» والتي بين فيها أن زلات اللسان ليست في الواقع هفوات تصدر عن الأنان لا معنى لها وإنما من حالات عذبية تنشأ عن عوامل نفسية مختلفة يمكن الوصول إليها بالتحليل النفسي .

الأسود المموم .

إن الشر يجب ألا يكون إلا لدفع الشر الذي لا يدفع بالخير . فيجب على القديس الحليم أن يكون عنيقاً شديداً مع الذين لا يرون المثل الأعلى إلا في الشر والعنف ... أما أن يتخذ ذخيرة وغذاء ، يجره النفس انسياقاً مع الفرائز القديمة ، واستجابة لوحش الذي فينا ، وتنمية لتوازعه وتنقياً عن سفالاته المظلمة فذلك هو الهدم لدعائم الحضارة والارتداد والانتكاس إلى الوحشية التي تطمس الآفاق التي رآتها الإنسانية على ضوء السكينة النفسية والحب المتبادل .

فلسيمين الله يحيي الخير على الحرب الدائرة بينهم وبين هذه النفوس المريقة في عالم الأذى ...

وليحفظ رقة الخير وضعفه بين الشرور كما يحفظ حرير الورد من جوار الأشواك السنونة المشرعة التي تهدهد دائماً بالتمزق وتؤذي من يريد أن ينعم به نعمة خالصة .

عبر المتمم معروف

بميت لا يمدك ضمير ولا وجدان ساعة بجران الشر واحتدام الغنينة فلنكل وقت ، فكن للشر بقلبك كما تكون للخير بقلبك ! هكذا يسم هذا النوع من الناس نفسك بشيرة نفسه ، كما يسم الثعبان دمك بلسمة نابه ومسموم لمامه ، فلا تتالك إلا أن تقيء وتهدى وتلوى وتأتي بالحماقات والشناعات ... إنه يجذبك من عالم أحلامك السعيدة العليا إلى الخفيض الذي تنمرغ فيه وتقلب عليه مع بنات الطين والظلام ... إنه يوق الشيطان ينفخ فيه على أفاعي الشر والغنينة في الحجرات الظلمة من نفسك كما أوشكت أن تموت ؛ لتجيا دائماً ممك لأنها أعظم جنوده التي أرسدها لحرب ذلك الطفل المبقرى الوديع : الحب !

وإن هذه الأفاعي إذا سمحت ونشطت فلن تأكل في الحقيقة إلا فلذات قلبك ولن تشرب إلا دمك ... ولقد جعلت من الذين أوسموا لها من صدورهم مسموى الإدراك مطموسى الإحساس بجمال الوجود ولذة الحب والرحمة . إنها كريمة الديب مغتالة لأفضل ما في النفس ، مثيرة للدم

التنويم المغناطيسى فقد شاهدت برنهم (Bernheim) عام ١٨٨٩ في نانسي وهو يقوم بتجاربه على رجل من المدينة نومه تنويمًا مغناطيسياً ، وعند ما استيقظ الرجل بدأ لأول وهلة أنه لا يدري شيئاً عما قام به أثناء النوم وقد ادعى أنه لا يستطيع أن يتذكر شيئاً ، غير أن برنهم ألح عليه في السؤال مؤكداً له أنه يعلم كل شيء . وأنه لو أجهد نفسه قليلاً لاستطاع أن يتذكر كل ما حدث له . وما كان أشد دهشتنا عند ما بدأ الرجل فعلاً يتذكر شيئاً فشيئاً بعض ما حدث له أثناء النوم ، وكلما تذكر شيئاً اشتدت ذاكرته فتذكر أشياء أخرى حتى استطاع في النهاية أن يتذكر بالضبط كل ما قام به وهو نائم . ألا يصح لنا إذاً أن نستنتج من هذا أن هذه الذكريات كانت في عقله من مبدأ الأمر ولكنها كانت فقط صعبة النال؟ فهو لم يكن يدري أنه يعلم بها ولكنه كان يعتقد أنه يعلمها . وهو في هذه الحالة يشبه الشخص الحالم تمام الشبه . والواقع أن هناك علاقة واضحة بين التنويم المغناطيسى والنوم الذى هو شرط أساسى للحلم . فالتنويم المغناطيسى يطلق عليه فعلاً النوم الصناعى ، فنحن نقول للشخص الذى يريد أن نومه مغناطيسياً : « نائم ! » وما نوعز به إليه وهو نائم يمكن مقارنته بالأحلام في حالة النوم الطبيعى . فالحالة العقلية واضحة في الاثنين ، فكما أننا في النوم الطبيعى تقطع كل صلة تربطنا بالعالم الخارجى ، فكذلك نفعل في حالة التنويم المغناطيسى فيما عدا الشخص الذى يقوم بتنويمنا والذي نبقى معلقين به .

أظن من الممكن الآن أن نعود إلى عملنا ونحن أكثر ثقة من ذى قبل . رأينا إذاً أن من المحتمل جداً أن الحالم يعلم شيئاً عن حلمه ، ولكن المسألة هي كيف يمكننا أن نسهل له الوقوف على هذه المعلومات وإعطائها لآنا؟ الطريقة التى سنتبناها هي أن نسأل الحالم عن معنى حلمه وكيف حلم هذا الحلم ، والكلمات التى يجب بها يجب أن تؤخذ على أنها الأيضاح المطلوب بقض النظر عن كونه يظن أنه يعلم أو لا يعلم شيئاً عن الحلم .

أظن هذه الطريقة بسيطة جداً ، ولكن مع هذا أخشى أن تثير غيكم معارضة شديدة فتصيحون : « فرض ثالث ! وهو أبعد احتمالاً من سابقه ! أتبنى أننا إذا سألنا الحالم عن الأفكار التى تتوارد على خاطرننا فأجابنا هل الفور فاعلمنا إلا أن تأخذ إجابة

علينا في هذه الحالة أن نسأل صاحب الرلة عما يقصده أو ما كان يفكر فيه حتى نستطيع أن نصل إلى الدوافع الخفية التى دفنته إلى ارتكاب هذه الرلة ، كما يثبت لكم أن التحليل النفسى مبنى كله على هذه الطريقة ، أى ترك الشخص الذى نحمله يجيب بنفسه على مشاكله . وعلى هذا فالحالم يجب عليه أن يفسر لنا حلمه بنفسه ولكن الأمر ليس هنا بالسهولة التى نظن ، فى حالة الرلات كانت هذه الطريقة تنجح فى كثير من الأحيان ، ولكن فى أحيان أخرى كان الشخص المستجوب يرفض الإجابة عن شيء بل كان يرفض الجواب الذى تقترحه عليه من استنتاجاتنا فى غيظ وحقد . أما فى حالة الأحلام فليس هناك أمثلة من النوع الأول ، فالحالم دائماً يقول إنه لا يعلم شيئاً عن حلمه ، وهو لا يستطيع أن يرفض تفسيرنا لأنه ليس لدينا ما تقدمه له . فسادام لا يعلم شيئاً ونحن لا نعلم شيئاً ومن المؤكد أن شخصاً ثالثاً لا يعلم شيئاً كذلك ، فلا مطعم لنا إذاً فى الوصول إلى حل موفق . أعلينا عندئذ أن نفلح عن هذه المحاولة ونقر بجزنا؟ إذا كان منكم من يرغب فى ذلك فليفعل . أما إذا كنتم راغبين فى مواصلة البحث فى استطاعتكم أن تتبمنى فسأريكم أن الشخص الحالم فى الواقع يعلم معنى حلمه ولكنه لا يدري أنه يعلم وعلى هذا يظن أنه لا يعلم . أظن أنه من المحتمل أن تلتفتوا نظري عند هذه النقطة إلى أننى قد عدت إلى تقديم فرض آخر ولما يعض على تقديمي الفرض الأول وقت طويل ، وأننى بمضى هذا قد بمدت عن جادة الصواب ودقة البحث ولكنى أوجه نظركم إلى أنى لم أجب . هنا لأنظاها أمامكم بالشموذة فأقدم إليكم حقائق سهلة مستساغة بينا أخفى عنكم الصعوبات والشكوك حتى نطمئن نفوسكم إلى أنكم قد تعلمت شيئاً جديداً . وعلى هذا أقول لكم إنى فعلاً قد فرضت فرضين متداخلين فمن يجد منكم فى هذا شقة أو عدم دقة فما عليه إلا أن يتركنا فى خير . ولكنى أوجه نظركم إلى أن هذين الفرضين ليسا على درجة واحدة من الأهمية . فأحدهما وهو القائل بأن الأحلام ظاهرة عقلية هو الفرض الذى نأمل فى إثباته عن طريق النتائج التى سنصل إليها . أما الفرض الآخر فقد سبق إثباته فى مجال مختلف وأنا فى الواقع لم أعمل أكثر من أن سمحت لنفسى باستمارة فى بحثنا هذا . وهذا المجال المختلف الذى أقصده هو

يجب على أن أطلب منكم أن تنظروا بين الاحترام إلى هذه الحقيقة الواقعة : وهي أن فكرة واحدة فقط ولا شيء غيرها هي التي تخاطر على بال العالم عند ما يستجوب عن حله .

ولما كانت هذه النقطة على درجة كبيرة من الأهمية ، لذا أسألكم أن تلتفتوا إليها التفاتاً خاصاً . فمعد ما أسأل شخصاً عما يخاطر على باله بالنسبة لعنصر ما من عناصر حله فإن ما أطلبه منه هو أن يستلم لمالية الترابط المطلق « Free association » وهذه العملية تحتاج إلى حالة من الانتباه تختلف اختلافاً بيناً عن حالة التروى بل هي في الواقع تموقها . وبعض الناس يتبياً لهذه الحالة في مهولة ويسر ، والبعض الآخر يلاقى في ذلك عناء كبيراً وعدم اعتماد غير معقول . وقد يحسب المرء أن عملية الترابط المطلق التي تنشأ عند ما نطلب من شخص ما أن يفكر في اسم خاص أو عدد ما تكون أكثر حرية ويكون لدى الشخصين فرصة أكبر للاختيار ؛ ولكن الواقع أنه يمكن أن نثبت أنه في كل حالة توجد عوامل عقلية خفية هي التي تحدد نوعي الترابط ، وهذه العوامل تكون مجهولة لدينا في اللحظة التي تبدأ فيها عملها ، ولتوضيح ذلك أضرب لكم المثل الآتي :-

حدث في يوم من الأيام بيننا كنت أعالج شاباً أن ذكرت له شيئاً عن هذا الموضوع وأكدت له أنه على الرغم من الحرية الظاهرة في الاختيار في مثل هذه الحالات فأنا في الحقيقة لا نستطيع أن نفكر في أي اسم لا يمكن أن نثبت أن الظروف المحيطة بالشخص الذي نقوم معه بالتجربة ، وسجيته والحالة التي كان عليها هي التي تحدد هذا الاسم . ولما كان بطبعه ميالاً إلى الشك فقد عرضت عليه أن يقوم بالتجربة في التو واللحظة . وقد سهلت له الأمر بأن طلبت منه أن يفكر في اسم امرأة من صاحباته لما كنت أعلم عن علاقاته الممتدة بكثير من الفتيات والنساء . ولكنه لدهشتي ، أو لدهشته على الأصح ، لم يمترن على الفور بسبل من الأسماء ، وإنما ظل ساكناً مدة ثم اعترف بأن الإسم الوحيد الذي خطر على باله في هذه المدة هو ألبين Albine ولكن الأعراب من ذلك أني عند ما سألته ما علاقتك بهذا الاسم وكم من النساء تعرفت به ؟ أخبرني أنه لا يعرف أحداً بهذا الاسم وأن لا أفكار لديه يربطها به . وقد يظن المرء أن التجربة قد فشلت ،

هذه على أنها الايضاح المطلوب ؟ ولكن من المؤكد أنه قد لا يجد ما يجيب به على الأطلاق أو قد تتوارد على خاطره أفكار يعلم بها الله . إنا لا نستطيع أن نتخيل على أي أساس بنيت هذا الأمل ، فهو في الحقيقة يتطلب اعتماداً أكثر من اللازم على العناية الإلهية في الوقت الذي نحن فيه أحوج ما نكون إلى نفاذ البصيرة والمقدرة على التقدير . وفضلاً عن ذلك فالعلم لا يتكون من عنصر واحد كزلة اللسان ، ولكنه يتكون من عناصر كثيرة ؛ فإذا كان الأمر كذلك ، فعلى أيها يمكننا الاعتماد ؟ » .

أظن أنكم على حق في جميع النقط الغير أساسية . فالعلم حقاً يختلف عن زلة اللسان من ناحية تركيبه من عناصر كثيرة كما أنه يختلف عنها من نواح أخرى كذلك ، وهذه الاختلافات كلها يجب أن تراعى عند التحليل . ولذا فأنى أقترح عليكم أن تقسم العلم إلى عناصره المختلفة وأن تختبر كل عنصر على حدة ، وبذا نكون قد أعدنا التشابه الذي بينه وبين زلة اللسان . وأنتم كذلك على حق عند ما تقولون إن العالم عند ما يستجوب عن عنصر من عناصر حله قد يجيب بأنه لا يجد لديه أفكاراً تتعلق به ، وهناك حالات نكتفي فيها بهذا الرد قد أدلكم عليها فيما بعد . أما في أغلب الأحيان فيجب علينا أن تناقضه وأن نلح عليه في الجواب مؤكداً له أن لا بد من وجود فكرة ما لديه وسنرى أننا كنا على صواب ، فسيبدأ بقوله : « إن هذا يذكرني بشيء يحدث لي منذ وقت قريب ا » أو « إن هذا حدث لي بالأمر ! » وسنرى من هذا أن الأحلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بآثار اليوم السابق . وأخيراً قد يستطيع العالم إذا أخذ العلم نقطة ابتداء أن يصل إلى تذكر حوادث من الماضي البعيد .

أما من حيث النتيجة العامة فأنتم على خطأ . فإذا كنتم تحسبون أن اعتبار الأفكار الأولى التي ترد على خاطر العالم كجواب عما نسأل عنه مسألة اختيارية بحتة ، وإذا كنتم تحسبون أن هذه الأفكار قد تكون هوائية لا علاقة لها بما نحن في سدد البحث عنه ، وأنها لا تدل إلا على ثقتي السماء في العناية الإلهية إذا توقفت شيئاً آخر ... إذا كنتم تحسبون هذا فأنتم على خطأ مبين . وهذا الخطأ راجع إلى الاعتقاد الراسخ فيكم بأن القوى النفسية حرة غير مقيدة في اختيارها وهذا اعتقاد غير علمي ، لنا

الخيط الأول الذي ربط بين علم النفس التجريبي وبين التحليل النفساني
أظن أنكم بعد سماع هذا الشرح ستقولون : « إننا نسلم
ممكن أن هذه الأفكار المترابطة خاضعة لقيود معينة وليست محض
اختيار كما كنا نظن من قبل ، كما أننا نعرف بهذا أيضاً في حالة
الأحلام . ولكن ليس هذا ما يهتينا . إنك تقرر أن كل ترابط
بمنصر من الحلم له دافع عقلي خفي لانعلم عنه شيئاً ولكننا لانستطيع
أن نرى أى برهان على ذلك ، حقيقة إننا نتوقع أن تكون الأفكار
التي ترابط بمنصر من الحلم ذات صلة وثيقة بالمقد التي في نفس
الحالم ولكن ما هي الفائدة ؟ إن هذا لن يساعدنا البتة في تفهم
معنى الحلم ولكنه يوصلنا فقط إلى بعض المعرفة عن هذه الأشياء
السماة بالمقد ، كما في حالة تجربة الترابط ، ولكن أى علاقة بين
هذه المقد وبين الأحلام ؟ » .

إنكم على حق ولكنكم تغفلون نقطة هامة وهي نفس
النقطة التي منمتني من اتخاذ « تجربة الترابط » نقطة ابتداء لهذا
البحث . فنحن في حالة التجربة أحرار في اختيار الكلمة —
المحركة ، وهي الشيء الوحيد الذي يتوقف عليه رد الفعل ، أما
كلمات رد الفعل نفسها فتعمل كوسيط بين الكلمة المحركة
والمقد التي في نفس الشخص الذي تجرى عليه التجربة . أما في
حالة الحلم فالكلمة المحركة تستبدل بشيء مشتق من حالة الحالم
العقلية ، وهذا الشيء يبع من مناطق مجهولة لديه ، وعلى هذا
فن المحتمل جداً أن يكون هو نفسه « إحدى مشتقات المقد »
فليس من الوهم إذاً أن ندعى أن الأفكار التي ترابط مع عناصر
الحلم لم تحدها عقدة أخرى غير المقد التي كونت هذا المنصر
الخاص من الحلم وأنها في نهاية الأمر ستوصلنا إلى اكتشاف
هذه المقد .

دعوني أضرب لكم مثلاً آخر تبينون منه أن الحقائق كثيراً
ما تحقق صدق نظريتنا . وهذا المثل هو نسيان الأسماء المعروفة
لدينا ومحاولة تذكرها ، فالذي يحدث في هذه الحالة يشبه تمام
الشبه ما يحدث في حالة تحليل الأحلام . فلنفرض مثلاً أني نسي
اسماً ما ولكني أشعر في قرارة نفسي أني واثق من معرفته فإذا
أفعل ؟ لا شك أني سأحاول أن أبذل كل جهد مستطاع في محاولة
تذكره ، ولكن التجارب علمتني أن كثرة التفكير لا تجدي
وأن في استطاعتي دائماً أن أفكر في اسم آخر أو أسماء عديدة
أخرى غير الإسم الذي نسيته . فإذا حدث أن خطر علي بال أحد

ولكن لا ، فقد تم التحليل ولسنا في حاجة إلى أفكار أخرى .
فالشاب نفسه كان أشقر بشكل غريب ، فكنت في حديثي معه
أثناء التحليل أدأبه بقولي له albino (وهو اسم الرجل الأبيض
الوجه والشعر) وعلاوة على ذلك فقد كنا في هذا الوقت منهمكين
في تحليل المنصر النسوي في طبيعته . وعلى هذا فقد كان هو
نفسه هذه « المرأة » التي شغلته في هذا الوقت أكثر من أى
امرأة أخرى

وكذلك الحال في الأحلام التي يترنم بها الإنسان في أوقات
فراغه فقد نستطيع إذا حللناها أن نصل إلى مصدرها ومعرفة
الأفكار التي كانت تشغل عقلاً في هذا الوقت من غير أن نحس بها
فإذا كانت الأفكار الحرة التوارد مقيدة هذا التقييد فإننا
نكون على حق إذاً عندما نستنتج أن الأفكار التي تتوارد نتيجة
لفكرة محركة (Stimulus idea) واحدة تكون كذلك مقيدة
غير مطلقة . وقد أثبتت التجارب كحقيقة واقعة أنها لا تكون
متعلقة بالفكرة ، المحركة لحسب ، بل إنها كذلك تعتمد على ألوان
من التفكير وضروب من المؤثرات القوية (أو المقد كما نسميها)
لانعلم عنها شيئاً في ذلك الوقت ، أو بصارة أخرى تعتمد على
نشاط لا شعوري .

وقد اتخذ الترابط الذي من هذا النوع أساساً لتجارب
عديدة أفادتنا كثيراً ولعبت دوراً ملحوظاً في تاريخ حركة
التحليل النفسي . فدرسة وندت « Wundt » هي التي ابتكرت
طريقة « تجربة الترابط » (association Experiment) وفيها
يطلب من الشخص الذي تجرى عليه التجربة أن يجيب على كلمة
— محركة (Stimulus - word) بأسرع ما يمكنه من
كلمات رد الفعل (Reaction - words) ، وتلاحظ النقط
الآية أثناء التجربة: وهي الفترة التي تمضي بين النطق بالكلمة —
المحركة وكلمات رد الفعل ، وطبيعة هذه الكلمات والأخطاء التي
ترتكب عند إعادة التجربة إذا أمكن . أما مدرسة زيورخ تحت
رئاسة بلواير وبنج (Bleuler and Jung) فقد توصلت إلى
تفسير رد الفعل في تجربة الترابط بأن ثالث الشخص الذي تجرى
عليه التجربة أن يلقى قليلاً من الضوء على الأفكار التي تبدو
ذات أهمية وذلك بواسطة سلسلة أخرى من الأفكار المترابطة .
وقد اتضح من هذه الطريقة أن هذه الردود الغير مألوفة لها اتصال
وثيق بالمقد التي في نفس الشخص . وقد كان هذا الاكتشاف هو